
المنظومة
ALMANDUMAH

الزوايا بين الكتاب والسيف

قراءة تاريخية في مفهوم الزاوية في موريتانيا (القرنين 18-19)


• رحال بوبريك

لقد ظل مفهوم الزاوية(والزوايا) مرتبطا في الدراسات التاريخية والاجتماعية بالنموذج المغربي لهذه المؤسسة، وهذا راجع لكون هذه الدراسات انطلقت من تاريخ وواقع المغرب. ولئلا نبقى أسرى لمعنى وبعد أحادي لمفهوم الزاوية ومن أجل اختبار إجرائيته النظرية في تعدد تجلياته، نتناول في هذه الدراسة دلالاته وما يحمله من مضامين في المجال الثقافي Air Culturelle (1) البيضاني {غرب الصحراء}.

مفهوم الزوايا لا ينفصل، في هذا المجال، عن تاريخ ظهوره وارتباطه الوثيق بالبنية الاجتماعية والسياسية التي أفرزته. فهو يعبر عن مجموعة اجتماعية داخل مجتمع تراتبي أكثر مما هي مؤسسة دينية صوفية قارة. فالزوايا هي قبائل تقوم بوظائف داخل نسق عام وتحتل مركزا سياسيا انطلاقا من هذه الوظيفة وقيمها الأخلاقية. نقدم في البدء تعريفا أوليا للزوايا من خلال نظرة أحد الوجوه الفكرية للبلاد وهو محمد المامي(1787-1865):" أما اشتقاق التزاويت فالزاوية لغة ركن البيت أو المسجد أو الدار، وشبه ذلك وقد غلبت عند أهل المدن على زوايا المدرسة المبنية للدراسة خاصة،لا ما جمعت الدراسة والصلاة فإنهم يغلبون اسم المسجد على الدراسة كما في الجامع الأزهري بالقاهرة {...} فلما كان أهل هذا القطر {بمعنى تراب البيضان} ثلاثة فرق حسان واللحم والزوايا، كانت هذه الفرقة هي أشبههم

أستاذ باحث بكلية الآداب - اكادير-

بأهل المدارس المسماة الزوايا، في لسان أهل المدن عرفا وهو حقيقة عرفية ومجاز لغوي نقلي والله تعالى أعلم" (2).

ولا يمكن فهم الدور الوظيفي والمكانة التي تحتلها الزوايا إلا داخل نسق اجتماعي عام موسوم بهرمية اجتماعية حيث نجد أن المجتمع البيضاني تسود فيه تراتبية مكونة من الفئات التالية : المحاربين{حسان/عرب} وزوايا {طلبة} وزناكة {لحمة} وحراطين ومعلمين وعبيد وإكاون. داخل الفئتين الأوليتين اللتين تحتلان قمة الهرم الاجتماعي توجد مستويات تراتبية أخرى : داخل الفئة المحاربة مغفرى/حسان/عربي وأما بالنسبة للزوايا: زاوي/مرابط/مريبط.

لقد استعمل الباحثون الأجانب عدة مفاهيم لتعريف هذا النظام مثل مفهوم الطبقة المغلقة (Caste)، مفهوم نظام (ordre) ومفهوم مجموعة التراتبية(Groupe Statutaire) ومفهوم الطبقة الاجتماعية (Classe Sociale)...الخ. بالنسبة لنا فإننا نرجح مفهوم المجموعة التراتبية في اجرائيته وديناميكيته(3).

هذه التراتبية والهرمية الاجتماعية أرجعتها جل الكتابات إلى حرب شرببه وحركة ناصر الدين الاصلاحية في أواخر القرن السابع عشر، فشارل ستوارت(4) يرى في هذا الحدث التاريخي أسطورة تأسيس للمجتمع البيضاني والتراتبية الاجتماعية داخله. هذه الأطروحة تجد جذورها في بداية القرن العشرين مع الكتابات الاستعمارية التي ركزت أطروحاتها حول هذه الحرب، واعتبارها صراعا إثنيا بين عرب (معقل) وبربر(صنهاجة) وتعتبر كتابات بول مارتي P. Marty نموذجا في هذا الإطار.

الكتابات المحلية تقدم لنا قراءة أخرى لأصل التراتبية الاجتماعية في المنطقة، العالم سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم(ت 1818) يعود بأصل هذه الظاهرة إلى القرن الحادي عشر الميلادي، إبان مرحلة الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر هذا الأخير عند عودته من مراكش إلى الصحراء، على إثر خلافه مع ابن اخيه يوسف بن تاشفين حيث يكتب " جعل {أي أبو بكر} الجيش ثلاثة طوائف ،العرب للجهاد والزاوية تتعلم وتعلم ويرتزقان من بيت المال وطائفة لإصلاح المال الذي هو الغنيمة" (5). نفس الإشارة موجودة في مخطوط لأحمد ولد حبت(ت 1881)(6). الشيخ سيدي بابا ولد محمد ولد الشيخ سيديا(ت1924)، يرجع بدوره مصطلح الزوايا للمرحلة المرابطية إذ إبان حكم أبو بكر بن عمر كان هناك قاضي يدعى ابراهيم الأموي أسس حوله مجلسا للقضاء، وزاويته كانت ملجأ للتائبين الذين يريدون الانكباب على الصلاة والعبادة والتعلم بعد ترك حمل السلاح والغارات(7). ويؤكد سيدي بابا بدوره على تقسيم الأدوار بين المجموعات التراتبية وطابعه الوظيفي قبل حرب شرب " والعرب إذا كانت إليهم المملكة والشوكة وللزوايا المناصب الشرعية كالإمامة العظمى التي اتفقت عليها العرب والزوايا قبل شرببه لناصر الدين

وكإمامة الصلاة والقضاء وتعليم العلم والشهادة والتبرك واللجوء عند الشدائد في الحياة والممات وأمثالها"(8).

هذا التقسيم الوظيفي الذي وضع أسسه أبو بكر بن عمر كان في خدمة الدولة المرابطية الناشئة في الصحراء(موريتانيا حاليا)(9). لكن بعد مقتل هذا الأمير ستنهار النواة السياسية دون أن تنمحي البنية الاجتماعية التراتبية.

من الجدير بالإشارة أن هذا النموذج التراتبي لم يكن محصورا على المجتمع البيضاني، إذ أن المجتمعات المجاورة تتميز هي كذلك بسلم تراتبي مشابه كالتوارق والفولان والسونونكي. بل إننا نجد هذا النظام الطبقي الثلاثي في مجتمعات أوربا وغيرها منذ القرون الوسطى. إجمالا تتسم هذه التراتبية الاجتماعية بالمرونة والحركية، فالمرور من مرتبة اجتماعية إلى أخرى عملية دائمة وخصوصا فيما يتعلق بالمجموعات التراتبية الثلاث: حسان والزوايا وزناكا. أحيانا بعض القبائل المحاربة تنبذ حمل السلاح لتصبح في عداد الزوايا، وقد يحدث كذلك أن قبيلة تابعة تفلح في تجاوز وضعيتها التابعة بعد انتصار عسكري. يمكن أن نخلص إلى أن الصراع من أجل احتلال قمة الهرم الاجتماعي عملية دائمة ونشطة في المجتمع البيضاني.

تدعونا هذه الملاحظة إلى تجاوز الأطروحة القائمة على التفسير الإثني و السلالي لظاهرة التراتبية الاجتماعية الذي تبنته الدراسات الاستعمارية. أصبح مصطلح حسان في الواقع مرادفا لمرتبة اجتماعية وقيم حربية أكثر مما يدل على بعد جنيالوجي أو إثني مرتبط بالقبائل المنحدرة من بني حسان الأصل العروبي عموما. ففي المغرب الكبير وانطلاقا من القرن السادس عشر، أصبح مصطلح "عربي" الذي تستعمله النوازل يترجم نمطا من العيش أكثر من أصل سلالي(10).

إحدى الميزات الرئيسية للزوايا تكمن في وظيفتها الدينية وطابعها السلمي. الزوايا مبدئيا لا يحملون السلاح، ليس فقط لأن ليس لهم الحق في حمله بعد هزيمتهم في شرببه. ولكن أيضا لأن هذا السلوك يتناقض مع أخلاقياتهم وشيمهم المثالية كما وضعها محمد اليدالي في القرن 18 في نصه الشهير "شيم الزوايا"(11).

إن معنى كلمة زاوي في حد ذاته يدل على هذا الطابع السلمي. فالمجموعات الزاوية تبنت خطابا يكرس وظيفتهم السلمية كأهل كتاب مقابل حسان المحاربين. ويعبر الزوايا عن موقفهم من حمل السلاح في العبارة التالية "من حمل السلاح ترك الصلا ". ولكن إذا تجاوزنا مستوى الخطاب الذي نجده سائدا عند علماء الكبلة {الترارزة والبراكنة} لتبرير موقعهم الاجتماعي ووظيفتهم، فإننا نجد شعورا عميقا بالخيبة والمرارة سائدا بينهم نظرا لما يتعرضون له من نهب وسلب وظلم من طرف الفئة المتغلبة: حسان. وهذا ما دفع بالعديد من الفقهاء إلى تبني أحيانا خطابا يدعو إلى الثورة على الوضع القائم وحمل السلاح للتخلص من سطوة حسان هذا يبين أن مدح الوظيفة السلمية لا يعدو كونه تعبيرا عن ضعف الزوايا

العسكري أكثر منه تمسكا مبدئيا بقيم دينية مسالمة، حتى وإن كانت بعض قبائل الزوايا تحمل السلاح (زوايا الشمس) من أجل الدفاع فقط على خلاف زوايا الظل التي كانت مجردة من السلاح.

في القرن التاسع عشر أصبحت مسألة ترك الزوايا للسلاح محور جدل بين العلماء، محمد المامي(1787-1865) ومحمد ولد سيديا(1831-1869) إضافة إلى جد وولد اكتوشن العلوي(ت 1872) نادوا بحمل السلاح، ليس فقط لكي يدافع الزوايا عن أنفسهم بل لتأسيس سلطة سياسية إسلامية قائمة على الإمامة. لكن نلاحظ أنه عكس حسان، الزوايا حتى حين يدعون لحمل السلاح يدرجون هذا السلوك – على مستوى الخطاب– ضمن إطار ديني . فالهدف من حمل السلاح يصبح نبيلا، غايته إقامة نظام سياسي مؤسس على المبادئ الدينية، وليس بغرض التمثل بحسان.

إلى حد الآن قدمنا قراءة تعتبر الزوايا رجال كتاب مسالمين وأوفياء لنموذج ديني مقابل خصومهم حسان. لكن بعض الوقائع الاجتماعية والمصادر المكتوبة والشفوية تؤدي بنا إلى إعادة النظر أحيانا في هذا النمط الذي قننت فيه أخلاقيات الزوايا وممارساتها ووظيفتها.

فقبائل الزوايا في شرق بلاد البيضان (الحوض وتكانت) كانت تحمل السلاح ليس فقط للدفاع عن نفسها من غزوات حسان، ولكن كذلك لتوسيع مجالها القبلي والدخول في معارك طاحنة مع قبائل حسان المحاربة. هذا الاختلاف بين زوايا الحوض وزوايا المناطق الأخرى، خصوصا الترارزة والبراكنة، ينعكس حتى على مستوى القبيلة الواحدة التي تحتل عدة مجالات جغرافية كما هو الحال بالنسبة لقبيلة كنتة، كما يبين ذلك نص سيدي محمد بن المختار الكنتي (ت1826). " إن كنتة قبيلة من قبائل الزوايا المتقادمة التي لا نسبة لها في الحرابة والبغي وليسوا ممن عرف بذلك واتسم به متقدم، دخلوا لا محالة في غمار الزوايا الذين هم على أنحاء منهم الذين لا يحملون السلاح ولا يتخذون الأتباع ولا يواسون لصا وهم زوايا الكبلة. ومنهم الذين يحملون السلاح وتأوي إليهم الأتباع ويواسون اللصوص وهم مع ذلك متسيرون بسيرة الزوايا متدينون، يتعلمون العلم ويعلمونه وفيهم العلماء والأولياء، ثم من تعدى إليهم مدفوع المواساة من لص ومحارب، دفعوه عن أنفسهم وأموالهم وحرمهم بما بأيديهم، جالبا ذلك عليهم ما هو جالبه وهؤلاء زوايا تكانت والحوض ومن خلفهم من الزوايا، إلى منتهى المعمور، فإن وقع بين القبيلتين منهم نزاع وتشاجر في نائرة ردوها إلى الله ورسوله"(12).

إن زوايا الحوض والجهة الشرقية من البلاد عموما، معروفون بازدواجية وظيفتهم ككنتة ولغلال وأهل سيدي محمود. كيف يمكن تفسير هذه الخصوصية؟. من الوهلة الأولى نلاحظ أن هذه القبائل تعدادها ديموغرافيا هو أكبر بكثير من زوايا الكبلة. إضافة إلى هذا العامل، هناك تاريخ تكوين هذه القبائل الزاوية، الذي يجب أخذه بعين الاعتبار، هاته القبائل تشكل في الواقع كونفدرالية عشائر وقبائل

ذات انتماءات متباينة، حتى وإن كان الخطاب الرسمي لكل واحدة من هاته الوحدات يؤكد على دور النسب(جد واحد مشترك) كشرط يحدد الانتماء إلى القبيلة. ما أن نقوم بدراسة حول المجموعات التي تشكل كل قبيلة، حتى ندرك تواجد العديد من الأفراد الذين ينحدرون من قبائل محاربة حسان "هاجروا " من قبائلهم الأصلية لينضموا إلى الزوايا.

ظاهرة المهاجرين معروفة في مناطق أخرى من البلاد تحت اسم التوبة ويطلق على أفراد أو مجموعات خرجت عن قبيلتها الأم المحاربة للإنضواء تحت قبائل الزوايا. في شمال افريقيا نجد إشارات إلى هاته الظاهرة، حيث أن نوازل مازونة تستعمل عبارة التياب بالنسبة للبدو الهلاليين(13). التوبة هنا هي عملية يتم من خلالها اللجوء إلى رجال الدين والخضوع لهم ونبذ التقاليد الحربية السابقة. هذه النوازل تخبرنا عن المراحل التي يمر بها التائب حيث يؤمر بالتخلي عن كل ما يملك لأنه اكتسب في الحرام. التواب أو التياب في بلاد البيضان كانوا هم كذلك مجبرين على التخلي عن ممتلكاتهم، ومنحها للزوايا لأنها شرعا حرام على التائب. الفقيه الكصري (ت1820)، أحد الوجوه العلمية في الحوض، تلقى العديد من النوازل المتعلقة بهذا الباب، هاهي نماذج منها " سؤال عن مفترق الندمة إذا تاب ولحق بالزاوية وخرج عن جميع ما بيديه واكتسب بعد ذلك مالا حلالا هل يطيب عليه ولا يجب عليه خراج فيما بقي عليه من الستباعات {...} سؤال عن مغترق الذمة إذا تاب ودفع ما بيده من المال لبعض الطلبة ورده على وجه الفيء هل يجوز ذلك أم لا ..."(14). هذه الأسئلة الموجهة إلى الفقيه الكصري تدل على المكانة التي احتلتها مسألة التوبة، وتدل كذلك على أن التائب يبدأ حياة جديدة مع المجموعة التي تبنته "بشراء" ذنوبه السابقة.

التوبة تحمل عموما بعدا دينيا، لكن هذا البعد الذي يعكسه لنا الخطاب الديني لا يجب أن يحجب عنا الواقع الاجتماعي للظاهرة. إن سبب انفصال هؤلاء "التائبين" عن قبائلهم الأصلية للالتحاق بالزوايا، يظل غامضا، التفسير السائد هو الرغبة في العودة إلى الله والتوبة بعد سنين من الظلال. إنه مسار فردي لترك السلاح والغزوات والاعتكاف على عبادة الله مع ما يحتمه هذا السلوك من نبذ السلاح. ولكن هذا لا يعني أن التائب لا يمكنه العودة إلى الحالة الأولى بعد فشل محاولة التوبة هاته. مؤلف "الحسوة البيسانية" يسرد لنا نموذجا هاما في هذا الصدد: " أما أبير {جد قبيلة أولاد أبير} فقد ارتحل من عند قومه البراكنة تائبا إلى الله تعالى فارا بدينه وهاجر في تندغة حلة أربعين جيد من زوايا القبلة{...} إن سبب خروج أبير من قومه رؤيا رآها في نومه أنه لما قدم على قبيلة تندغة مهاجرا إلى الله لم ينبذ أسلحته ولم يطرح مدافعه ومن أجل ذلك رحل من تندغ وسكن في أبناء عمه من بعيد من العرب الترارزة حتى مات "(15).

إذا تعمقنا في الظاهرة، نجد أن بعض المهاجرين أو التائبين، غادروا قبيلتهم الأصلية على إثر جريمة قتل أو صراع مع أبناء عمومتهم. في هذا السياق يطلبون حرمة وحماية قبيلة أخرى، هذه الأخيرة لا تملك من خيار سوى استقبالهم لأن قيم الشرف والعرض تحتم ذلك. والحالة الأكثر شيوعا هي انخراط الفرد أو الجماعات كمهاجرين عقب هزيمة عسكرية كما هو الحال بالنسبة لأولاد امبارك الذين التجأوا في معظمهم إلى قبيلة لغلال. السبيل الوحيد لتجنب السقوط في رتبة تابع(زناكة/لحمة) هو البحث عن حماية لدى قبائل الزوايا كمهاجرين أو تائبين. فصفة مهاجر لا تمنح للمستفيد منها فقط خلاصا دينيا، بل كذلك رمزيا وجسديا وفرصة للترقية الاجتماعية. فجاك بيرك يكتب بهذا الصدد أن التوبة ليست فقط حدثا أخلاقيا لكنها كذلك "عامل إعادة التوزيع الاقتصادي"(16).

إذا كان تياب الكبلة وأدرار قد تركوا السلاح شرطا لتوبتهم، فبالنسبة للحوض فقد احتفظوا غالبا بسلاحهم رغم أنه أصبح يوظف في إطار شرعي للدفاع عن المجموعة الحامية، ويتم ممارسة الحرب به باسم الجهاد. مهما يكن فإن الهجرة (أو التوبة) لا تعني ترك استعمال السلاح من أجل التفرغ للعبادة والعلم فالمجموعات المهاجرة شكلت الدرع الواقي للزوايا وكذلك طلائع جيوشها في المعارك. مؤلف الوسيط يشير إلى الدور الحاسم الذي لعبه مهاجرو أولاد مبارك في الانتصارات التي حققها لغلال في الحوض ضد خصومهم. إن قبيلتي لغلال وأهل سيدي محمود استطاعتا في ظرف وجيز مد سيطرتهما على مجال جغرافي واسع بالمقارنة مع أبناء عمومتهما في أدرار شمالا.

وإذا نظرنا جليا سنلاحظ أن هاتين القبيلتين المنتسبتين للزوايا احتضنتا في صفوفهما العديد من المجموعات الحسانية في إطار مسار التوبة. نرى إذن أن تشكيلات قبائل زوايا الحوض كان مركبا، فاندماج العديد من العناصر ذوي الأصول المحاربة داخل القبائل الدينية أعطاها صورة لا تنحصر في الطابع المسالم والمثالي الديني. لقد كانت تحارب وتمارس الغزو وتفرض المغارم على القبائل الضعيفة ولها أتباعها، على غرار حسان، حتى وإن كان هؤلاء الأتباع يحملون اسم "أصحاب" . هذه التسمية لا تعكس في الواقع إلا قيمة رمزية إذ من خلالها يتم إخفاء حقيقة علاقة التبعية وما تحويه من تجبر وعلاقة سلطوية.

ولكي لا نسقط في تعميم تعسفي نؤكد أن جميع قبائل الزوايا في شرق البلاد لم تكن بالضرورة قبائل ذات وظيفة مزدوجة دينية وحربية. الكصري كان يجيب في العديد من نوازله على أسئلة تتعلق بمختلف أشكال الضرائب {مدارات غرامات، فداء} التي كان يؤديها قسرا الزوايا لمستغرقي الذمم(17)..

فقبائل الزوايا الصغيرة كانت ضحية دائمة لعنف حسان وكانت مجبرة على دفع مدارات لصيانة حياتها وممتلكاتها(18). الكصري يعتبر في هذا الصدد الزوايا رهائن لحسان " المسلمين مع هؤلاء اللصوص بمنزلة الأسارى. فجميع المدارات

من الزاوية بمنزلة الفداء لأنفسهم" (19). الأغلبية الساحقة من فقهاء البيضـــان نظـــرا لحالة الـــفوضى السائدة (السيبة)، نصحـــوا وبـــمرارة الزوايـــا بدفـــع المغـــرم والمدرارت لحسان.

مفهوم الزاوية يحمل عدة دلالات ويغطي ظواهر اجتماعيـــة وســـيرورات تاريخية متباينة، من مكان منزو للتعليم والتعبد مرورا بمكان تجمع لمريدين حـــول ولي باحثين عن الخلاص الديني والروحي، إلى مجال جغرافي دينـــي ذو وظيفـــة ودور اجتماعي مؤثر، نجد أنه في دراستنا يتخذ هذا المفهوم تعبـــيرا عـــن مكـــون اجتماعي فاعل في إطار قبلي وتراتبية اجتماعية مبنية على أساس وظيفي ذي بعـــد اجتماعي سياسي ثقافي عميق، مع ما يتخلله من صراع من أجـــل الســـلطة مؤديـــا بالزوايا إلى التأرجح بين وظيفة حمل الكتاب، والمسالمة من جهة ومن جهة حمـــل السيف وما يحتمه من ممارسة للحرابة وأخلاقيات المتغلب.

الـهـوامـش

1 - نستعمل هنا عبارة المجال الثقافي بمفهومها الانتروبولوجي الذي يعني منطقة جغرافية محددة بتواجد عناصر ثقافية مشتركة بين ساكنتها، وتراب البيضان هنا يحد شمالا بواد نون وجنوبا نهر السينغال وغربا المحيط الأطلسي وشرقا مالي.

2 - محمد المامي، جمان كتاب البادية ، صورة من مخطوط بحوزتنا ، ص 24-25.

3 - لقد تناولنا في كتابات أخرى هذا الموضوع ، انظر

BOUBRIK .R Saints et societé en islam, une confrérie Ouest sharaienne la Fadiliyya , C N R Ed Paris 1999 PP 32-33.

4 - STEWART,C C, Islam and Social Order in Mauritania, Clarendon Press,oxford, 1973, P 54

5- سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، رسالة الروض في انساب أهل الحوض، مخطوط بالمعهد الموريتـــاني للبحث العلمي، رقم 2755، نواكشوط ص 15-16.

6 - احمد ولد حبت، في بعض الأنساب الشنقيطية ، صورة مخطوط بحوزتنا، ص 26.

7 - بابا ولد محمد ولد الشيخ سيديا، إماراتا إدوعيش ومشظوف، تحقيـــق إزيـــد بـــه، منشـــورات جامعـــة نواكشوط،نواكشوط 1992، ص 215.

8 - بابا ولد محمد ولد الشيخ سيديا، إمارتا إدوعيش ومشظوف، ص 115

9 - الكتابات التاريخية الموريتانية تركز على حدث عودة أبي بكر بن عمر من المغـــرب إلـــى الصحـــراء وتأسيسه نواة دولة عرفت بدولة لمتونة.

10 - BERQUE ,J, L'interieure du Maghreb, Galimmard , Paris , 1978,P 63

11 - محمد اليدالي، نصوص من التاريخ الموريتاني تحقيق محمد ولد باباه، بيت الحكمة، قرطاج 1990.

12 - سيدي محمد ولد سيدي المختار الكنتي، الرسالة الغلاوية، صورة مخطوط بحوزتنا، ص 55

13 - BERQUE ,J,op,cit ; P 56-61

14 - الكصري، نوازل الكصري، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، رقم 3340، ص 184.

15 - صالح ولد عبد الوهاب ،الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، صورة مخطوط بحوزتنا، ص 105.

16- BERQUE,J,op,cit,P57

17- عبارة دينية تستعمل عموما من طرف الفقهاء لنعت الخارجين عن القانون وفي بلاد البيضان تعني حسان

18- المدارات كانت تتحملها كل القبيلة، هذا الإطار القبلي أعطى للضريبة بعدا اجتماعيا إذ من خلالها يظـــهر التماسك الاجتماعي

19 - الكصري ، نفس المصدر ، ص 217.